تحويل آيا صوفيا من جديد إلى جامع

رمضان آكِير* - يوسف أوزكِير**

ملخص: تتناول هذه الدراسة ملفّ تحويل آيا صوفيا من جديد إلى جامع بعد 86 عامًا على إعلانه متحفًا، وتقدّم لمحة عن تاريخ آيا صوفيا حتى وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكم، وتركز الدراسة بشكل أساسي على النقاشات الدائرة حول تحويل آيا صوفيا إلى جامع، وترى أنّ تركيا بهذا القرار عزّزت سيادتها مرّة أخرى. فجامع آيا صوفيا مؤشّر مهمّ من المؤشّرات السيادية لتركيا، إلى جانب كونه رمز فتح إسطنبول. وأن الجدل الذي كان يدور حول آيا صوفيا في هذا السياق، داخل تركيا وخارجها، شكل الأرضية السيكولوجية للتطبيع الذي حدث في العلاقات بين الدين والدولة، وأصبح في الوقت ذاته عاملًا يعزّز سيادة تركيا.

* جامعة نامق كمال في تكيرداغ، تركيا.
** جامعة مديبول، تركيا.

The Reconversion of Hagia Sophia into the Great Mosque of Ayasofia

RAMAZAN AKKIR* & YUSUF ÖZKİR**

ABSTRACT *This study discusses the reconversion of Hagia Sophia into The Great Mosque of Ayasofia, 86 Years after its declaration as a museum. It provides a glimpse into the history of Hagia Sophia until the arrival of the Justice and Development Party (AKP). It also argues that Turkey managed to reinforce its sovereignty through that decision, of reconversion, as Ayasofia mosque is an important sovereign indicator of Turkey, as well as being the symbol of the conquest of Istanbul. The controversy surrounding Ayasofia in this context, both inside and outside of Turkey, formed the psychological basis for the normalization of relations between religion and state, and at the same time became a factor that strengthened Turkey's sovereignty.*

* Tekirdağ Namık Kemal University, Turkey.
** Medipol University, Turkey.

رؤيـــة تركيـــة
2020-(4/9)
66- 43

DOI:10.36360/1560-009-004-003

المدخل:

إسطنبول المدينة العريقة؛ تعاقبت عليها عواصم الإمبراطوريات الكبيرة التي شكّلت السياسة العالمية بعمقها التاريخي وطبيعتها الاجتماعية وموقعها الجيوسياسي والجيوإستراتيجي، بوصفها جسرًا يصل بين القارتين الأوربية والآسيوية. وعندما يُذكَر اسم إسطنبول في تاريخ البشرية يتبادر إلى الأذهان الصرح التاريخي آيا صوفيا، فاسم إسطنبول مقترن باسم هذا المعبَد الذي يشكّل أحد معالمها. وآيا صوفيا بعظمته وفخامته وإطلالته ووظيفيته وسماته المعمارية؛ كان دائمًا محطّ الجدل والنقاش في عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والعهد العثماني، وعلى امتداد العهد الجمهوري[1].

إنّ آيا صوفيا اسم رمزي أُطلِق على كنائس مختلفة في مدن ودول مختلفة منذ عهود المسيحية الأولى، مثل إسطنبول وطرابزون وسينوب وإيطاليا. وكلمة (آيا) تأتي بمعنى (المقدّس والعزيز)، وكلمة (صوفيا) تعني (الحكمة)، فتأتي (آيا صوفيا) بمعنى (الحكمة المقدسة) أو (الحكمة الإلهية)، وقد أُسِّسَ العنصر الثاني من الأقانيم الثلاثة بحسب عقيدة الثالوث في المسيحية الأرثوذكسية باسم صوفيا (الحكمة الإلهية) الذي هو مفهوم صوفي، باعتباره وصفًا للابن (يسوع). كما أُطلِق اسم آيا صوفيا على (الكنيسة الكبيرة/ Megale Ekklesia)، والكنيسة البطريركية (آيا إيرين/ Hagia Eirene) [2]. فعند تأسيسها، كانت آيا صوفيا تُسمّى الكنيسة الكبيرة، ثم باتت تُعرَف باسم (الحكمة المقدسة) منذ القرن الخامس الميلادي. وقد شهدت هذه الكنيسة تتويج الحكّام طوال تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتميّزت بكونها كبرى كنائس العاصمة، وعملت بوصفها كاتدرائية يقيم فيها الأسقف بصورة دائمة، بوصفها جهازًا إداريًّا ضمن التسلسل الهرمي للكنيسة.

لمحة تاريخية موجزة عن آيا صوفيا:

يعود تأسيس مبنى آيا صوفيا وإضافته ميراث البشرية إلى تاريخ طويل. فقد قرر الإمبراطور الروماني الشرقي قسطنطين الأول بناء كنيسة فخمة ترمز إلى المسيحية في إسطنبول عاصمة الإمبراطورية، فشرع في بنائها عام 324م، وافتتح كنيسةً عام 360م باسم (Megale Ekklesia). وتعرضت الكنيسة للخراب والدمار إثر حريقٍ كبيرٍ اندلع عام 404م، فأمر الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بتشييد كنيسة آيا صوفيا الثانية مكانها[3]. واحترقت هذه الكنيسة الثانية مع جزء من القصر والمباني العامة الأخرى خلال اضطرابات (نيكا) التي عمت البلاد ليلة 13-14 يناير من عام 532م، تمردًا على يوستينيانوس الأول (527-565) وعقيلته، فقرّر الإمبراطور بناءها بطريقة رائعة مختلفة عن المباني السابقة.

وكُلِّف اثنان من المهندسين المعماريين في الأناضول الغربية، هما: أنتيميوس ألترالسي (من آيدن)، وإيزيدوروس أليلتوسلو (من بالات) ببناء هذا المعبد. وصمد هذا الصرح العظيم الذي بُدِئ بناؤه عام 532م بأمر من الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول، واكتمل عام 537، ولا يزال قائمًا[4].

أصيبت كنيسة آيا صوفيا بخراب كبير إثر زلزال ضرب إسطنبول عام 558م، وزلازل أخرى وقعت حتى عام 989م، فخضعت لعمليات الترميم. ولكن الضربات التي تلقتها آيا صوفيا لم تقتصر على الزلازل التي هزّت إسطنبول في تواريخ مختلفة، فالدمار الأكبر الذي تعرضت له هذه الكنيسة تجلّى في احتلال إسطنبول في أثناء الحملة الصليبية الرابعة، حيث تعرضت فيها للنهب والخراب[5]. ففي عهد المملكة اللاتينية التي أسستها الجيوش اللاتينية وغزت القسطنطينية بين عامي (1204–1261)– تعرضت القسطنطينية وآيا صوفيا لدمارٍ كبيرٍ، وفقد المعبَد الأرثوذكسي ملامحه وسماته إلى أن تحوّل إلى معبد كاثوليكي. وأُرسِل العديد من الآثار المقدّسة لدى المسيحيين الأرثوذكس إلى الكنائس في الغرب، من بينها ما يُزعَم أنّه قطعة من شاهد قبر السيد المسيح، وكفن (تورينو) الذي استُخدِم لتكفين جسد

السيد المسيح، وحليب مريم العذراء، وعظام القديسين. بالإضافة إلى ذلك، سُرقت الأشياء الثمينة المصنوعة من الذهب والفضة، حتى الذهب الذي كان يرصّع البوابات لم يسلم من النهب[6].

يذكر أندريه كلوت في كتابه بعنوان (السلطان محمد الفاتح) ما تعرضت له إسطنبول وآيا صوفيا من السلب والنهب من قبل اللاتين عام 1204م، مشيرًا إلى أنهم قاموا بعمليات النهب والمذابح المروعة. ويصف كلوت الأحداث على النحو الآتي: لقد نهبوا الكنوز المدخّرة المتراكمة عبر عصور، وكذلك نهبوا وسلبوا الكنائس والأديرة والمنازل، فلم يبق فيها إلا القليل النادر. في هذه الأثناء، سُرِقَت مقتنيات آيا صوفيا بالكامل، واستُخدِمت المزهريات المقدسة أقداحًا، ودُمّر المحراب. ولم يتردّد اللاتين لحظةً في إدخال الخيول والبغال إلى الكنيسة لحمل الأشياء الثمينة التي سرقوها منها، واغتصبوا النساء والفتيات والراهبات[7]. وهكذا ظلّت القسطنطينية في أيدي اللاتين الكاثوليك حتى عام 1261م، حيث استعادتها روما الشرقية، وأُعِيد بناء آيا صوفيا المهترئة المتهالكة، وحُوِّلت إلى معبد أرثوذكسي.

لكن الدمار الأكبر الذي طال آيا صوفيا التي ظلت تتعرض للزلازل والإهمال حتى القرن الخامس عشر، وقع حين نشبت الصراعات الطائفية. يصف دوكاس، مؤلف كتاب (التاريخ البيزنطي)، الأجواء السياسية والدينية في تلك الفترة كالآتي: «لم تنته الصراعات الطائفية أيضًا. والمواقف التي تبناها الكهنة تجاه هذه القضية مواقف تستحق الذكر. فالمسيحيون الذين يتوسلون إلى أولئك الكهنة للاعتراف بخطاياهم كانوا يُسألون عما إذا كان قد سبق لهم أن أخذوا الخبز والنبيذ الذي يمثّل دم وجثّة السيد المسيح من الكهنة الكاثوليك، وما إذا كانوا قد حضروا الطقوس الروحانية التي يؤديها الكاهن أم لا...، وكانت الكنيسة العظيمة (آيا صوفيا) تُعرَف بأنها ملجأ الشياطين ومعبد الوثنيين»[8]. وقد مهدت النزاعات السياسية والأجواء الدينية الطريق لفتح القسطنطينية من قبل السلطان محمد الفاتح.

تعرّضت آيا صوفيا لانعطافات كثيرة في تاريخها، ولعل أهمها فتح إسطنبول من قبل سلطان الدولة العثمانية، السلطان محمد الفاتح في 29 مايو 1453م. فقد تبوَّأ هذا الفتح اهتمام الدولة العثمانية -التي أُسِّست على تخوم بيزنطة على شكل إمارةٍ صغيرةٍ في مطلع القرن الرابع عشر- منذ سنوات تأسيسها الأولى، وتحوّل إلى الحلم الأكبر للسلطان محمد خان الثاني. فقد رأى السلطان في هذا الفتح ضمانًا لمستقبل دولته، ودعامةً للسياسة العالمية التي أراد تأسيسها، فأقبل يعدّ العدّة في سبيل تحقيق هدفه، فشرع في بناء قلعة روملي حصار، وأمر بصناعة المدافع العملاقة لتحطيم أسوار القسطنطينية، وافتُتِحت القلاع حول القسطنطينية واحدة تلو أخرى، حتى فُتِحت القسطنطينية في 29 مايو 1453م ، وفاز

السلطان محمد بلقب (الفاتح). وكان أول عمل قام به بعد الفتح، أنه توجه إلى آيا صوفيا، وأصدر قراراه بمنح أمانه لأهل القسطنطينية ورجال دينها المحتشدين في كنيسة آيا صوفيا[9].

> **أطلق السلطان محمد الثاني على القسطنطينية إبان فتحها اسم (إسلامبول) تفاؤلًا بأن يكون (المكان الذي يكثر فيه الإسلام)، ومهد بذلك الطريق أمام تحوّل القسطنطينية إلى إسطنبول، واكتسابها هوية إسلامية**

وقد شهدت القسطنطينية بعد فتحها حركة إعمار كثيفة، فتغير بها وجه المدينة، وأخذت تكتسب تدريجيًّا هويةَ مدينةٍ تركيةٍ إسلاميةٍ، وتحول اسمها إلى (إسلامبول)، وهيمنت عليها مظاهر مدينة متروبول ومركز أممي عالمي لإمبراطورية عظيمة، وبدأ تنصهر في بوتقتها الثقافات المختلفة. وفي ظل هذا التأثير، أصبحت الإمبراطورية تحت تأثير البنية الثقافية والاجتماعية الجديدة المنطلقة من مركز إسطنبول[10]. وهكذا أطلق السلطان محمد الثاني على القسطنطينية إبان فتحها اسم (إسلامبول) تفاؤلًا بأن يكون (المكان الذي يكثر فيه الإسلام)، ومهد بذلك الطريق أمام تحوّل القسطنطينية إلى إسطنبول، واكتسابها هوية إسلامية[11].

ثمة حدث آخر مهمّ في تاريخ آيا صوفيا، هو تحويلها إلى جامع بعد عمليات الصيانة والترميم التي خضعت لها إبان فتح القسطنطينية. فقد أقيمت صلاة الجمعة الأولى إبان الفتح في جامع آيا صوفيا في 1 يونيو 1453م، حيث خطب في الناس وأمَّهم الشيخ آق شمس الدين، شيخ السلطان محمد الثاني[12]. وأُخرِجت المعمارية الخاصة بالكنيسة، وأضيف إلى المعمار الداخلي المحراب والمنبر والكرسي والمحفل، وأضيفت المئذنة إلى معماره الخارجي. وأَسّس السلطان محمد الثاني وقفًا وهو يفكر في مستقبل آيا صوفيا، فجرى وقف العديد من الممتلكات لتأمين الموارد المالية اللازمة لصيانة الصرح واستمراره إلى يوم الدين، وقد استطاعت هذه الموارد المالية وثقافة الوقف الحفاظ على جامع آيا صوفيا وبقائه. يقول المؤرخ خليل إينالجيك: «لولا الأموال الطائلة التي أنفقها الأتراك على ترميم آيا صوفيا، لانهارت آيا صوفيا، وسوِّيت بالأرض. فبعد إعلان آيا صوفيا جامعًا كبيرًا من قبل السلطان الفاتح، وُقِف الكثير من الممتلكات والقرى من أجله. ووُضِعت الجزية التي يدفعها المسيحيون في إسطنبول آنذاك لتكون دخلًا لهذا الجامع. وقام المعمار سنان بتعزيز جدران الجامع المتهالكة المطلّة على القصر بالدعامات والأعمدة، وجرى ترميم قبته مرات عديدة. وزبدة الكلام هنا هو أنه إذا كانت آيا صوفيا قائمة اليوم، فإن ذلك بفضل أعمال الترميم التي أجراها العثمانيون بحساسية كبيرة»[13].

حظيت آيا صوفيا منذ تحويل القسطنطينية إلى إسطنبول باهتمام كبير من قبل أهالي إسطنبول، وفي مقدمتهم السلاطين العثمانيون. فقد حول السلاطين العثمانيون آيا صوفيا إلى مجمعٍ وكليةٍ، بالإضافات التي أدخلوها على محيطها، وعمل أهالي إسطنبول على إحياء رمز الفتح هذا اعتمادًا على أوقاف متعددة أسسوها في هذا السياق. وبنى فيها السلطان الفاتح مدرسة ومكتبة، وأمر بصنع محراب ومنبر في آيا صوفيا. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشمعدانينِ على جانبي المحراب هما الشمعدانان اللذان جرى إحضارهما من قصر مارياس خلال الحملة المجرية في عهد السلطان سليمان القانوني. وكذلك أُنقِذ الجامع من الانهيار على يد المعمار سنان ببناء مئذنتين عظيمتين أيام السلطان مراد الثالث، إضافة إلى المئذنتين المبنيتين من قبل، فعُزِّز المعبد بإضافة دعامات إلى واجهته الخلفية المطلة على بحر مرمرة. ثم إن المنبر، ومحفل المؤذن، والمحافل الرخامية الأربعة الموجودة في فسحة الجامع الرئيسة، وكرسي الواعظ الرخامي، وجرار برغاما الرخامية الصلبة، من عهد السلطان مراد الثالث. والشمعدان الكبير المعلّق في القبة، ومحفل (الشاهنيشين)؛ أي محفل السلطان، من أيام السلطان أحمد الثالث. أما المحفل الموجود في الطابق العلوي، ومبنى عمارت خانة (الذي يقدم الطعام للفقراء وأبناء السبيل) والموضّأ وكتّاب الصبيان والمكتبة- فقد بُنِيت جميعًا بأمرٍ من السلطان محمود الأول. وتعود دائرة الهنكار [أي الحاكم والسلطان]، ومحفل الهنكار الموجود في الداخل، وغرفة المؤقت، إلى عهد السلطان عبد المجيد، حيث جرى بناؤه من قبل غاسباري تراجانو فوساتي (Gaspare Trajano Fossati). وهناك أشياء ثمينة أخرى تعود كلها إلى العهد العثماني، نذكر منها: النوافذ الجبصية في الجدار الذي يقع فيه المحاريب الستة، وماء السبيل داخل وحول المحيط الخارجي لآيا صوفيا، والمآذن الأربع، والمدرسة التي هُدمت عام 1935، والأضرحة الخمسة، وشواهد القبور، والكتابات، والخزفيات، والمقصورات، والشبكات، والسروج، والزخارف، ولوحات السلاطين الخطاطين، وغيرها[14].

ولا بد أن هذا هو السبب الذي جعل أونور يقول: «أصبح آيا صوفيا واحدًا من أهم المواقع الإسلامية، بمدرسته وأضرحته ومكتبته الأنيقة التي بناها محمود الأول، ومحافله، ونوافيره، وموضّئه، ومدرسته الأولى، وخان المؤقت الذي يعود إليه»[15]. ويشدّد حليم باقي كونتر على أن آيا صوفيا صرح تركي ناطق بالإسهامات التي قدمتها الإمبراطورية العثمانية إلى آيا صوفيا على النحو الآتي: «يعود الفضل إلى العثمانيين في بقاء آيا صوفيا صامدًا حتى يومنا هذا. وهذا مصدر فخر لأمتنا. إنه الجامع الذي صلّى فيه السلطان محمد الفاتح بغبار رجليه [من آثار المعركة]، ونتاج جهود بذلها الشعب التركي من أجل إحيائه، فينبغي الاعتراف بأنه صرح تركي»[16].

وفي عهد الجمهورية خضع آيا صوفيا لتحول آخر، إذ فقد وصفه بوصفه الجامع الكبير في 24 نوفمبر 1934، بناءً على طلب مؤسس الجمهورية مصطفى كمال أتاتورك وقرار مجلس الوزراء، ثم بدأ يفتح أبوابه للزائرين بوصفه متحفًا في 1 فبراير (1935)[17]، بعد أدائه وظيفة الجامع على مدار 481 عامًا. وجرى إدراجه أخيرًا في قائمة اليونسكو للتراث العالمي في عام 1985 في إطار المناطق الأثرية التاريخية في إسطنبول. ومع القرار الجديد الذي أصدرته الدائرة العاشرة لمجلس الدولة في 10 يوليو 2020، أخذ تاريخ آيا صوفيا يشكّل نفسه من جديد. فقد ألغى مجلس الدولة قرار مجلس الوزراء رقم 1589/ 7 المؤرخ في 24 نوفمبر 1934. وهكذا تمهّد الطريق أمام آيا صوفيا ليكتسب من جديدٍ هوية الجامع، بعد أدائه دور المتحف من عام 1934 إلى عام 2020. وعادت تبعية آيا صوفيا إلى رئاسة الشؤون الدينية، وفتح الجامع الكبير أبوابه من جديدٍ بناءً على تعليمات رئيس الجمهورية رجب طيب أردوغان الذي قال: «لم يعد آيا صوفيا متحفًا، ومن ثَمّ ألغينا رسوم الدخول بعد أن أصبح جامعًا، وحاله في ذلك مثل حال بقية جوامعنا، سيفتح أبوابه على مصراعيه أمام المسلمين وغير المسلمين، أمام الأجانب منهم والسكان المحليين. وسيستمر آيا صوفيا بوصفه تراث الإنسانية المشترك في احتضان الجميع بوضعه الجديد، وبشكل أكثر تميّزًا وأصالة. إننا

نخطّط لاستكمال الاستعدادات بسرعة، وافتتاح آيا صوفيا للعبادة وأداء صلاة الجمعة في 24 يوليو 2020».

مناقشة قضية آيا صوفيا من منظور علاقة السياسة بالدين:

هناك قضايا تحظى بالجدل في الجمهورية التركية، منها العلاقة بين السياسة والدولة التي تتمحور حول العلمانية (اللائكية) التي تضع الدين تحت إشراف ورقابة السياسة أو الدولة. والعلمانية (اللائكية) تعني فصل الدين عن شؤون الدولة، وبقاء الدولة على مسافة واحدة من كل الطوائف الدينية، وعدم تمركز النفوذ في يد أي جماعة دينية، في مجالات مثل التعليم والصحة والأمن والقانون والاقتصاد التي هي تحت سيطرة الدولة، وعدم مراعاة مصالح الطوائف الدينية في القرارات التي تتخذها الدولة في سياساتها الداخلية والخارجية. بتعبير مختصر، العلمانية (اللائكية) تعني أن تكون الدولة على مسافة متساوية من جميع الطوائف الدينية[18].

لكن (اللائكية) في الفترات المبكرة من العهد الجمهوري لم تُفهَم على أنها تعني أن تكون الدولة على مسافة واحدة من جميع الطوائف الدينية، بل فُسِّرت في الغالب على أنها سلخ الدين عن واجباته الاجتماعية، وتحويله إلى عقيدة قابعة في وجدان الأشخاص، وإبقاء الدين والمتدينين تحت السيطرة والرقابة. ونتيجة لهذا التصور، اقتصر الدين على العقيدة والعبادات، وجرى إقصاء كل ما هو ديني من الحياة العامة، واستُبعِدت المبادئ والقيم والرموز الدينية من المجال العام. وعُدَّت (اللائكية) شرطًا لا غنى عنه من أجل بناء مجتمع جديد على القيم المعاصرة/ الحديثة، فوُضَع الدين تحت الرقابة وسلطة الدولة[19]. ولم تقتصر سياسة السيطرة والقمع هذه على المجال الديني فحسب، بل اتسعت حتى شملت مجالات أخرى مختلفة، مثل الثقافة واللغة والفن والتاريخ، وجرى العمل على تغيير الثقافة واللغة والتاريخ والفن بشكل جذري، باسم التغريب أو الظهور بمظهر الغرب[20]. والنظام الجديد الذي أطلق حركة التغريب الثقافي من خلال الدين والثقافة والرموز الدينية[21] عمل على إضعاف سلطة الدين فيزيائيًّا، من خلال تحويل آيا صوفيا إلى متحف[22]، وبناء دولة ونظام جديدين لا يشيران إلى الدين[23].

يمكن تفسير تحويل آيا صوفيا من جامع إلى متحف في عهد الجمهورية بأنه نتيجة لهذا الموقف السياسي والخيار الثقافي. فالدولة المبنية حديثًا غيّرت هوية آيا صوفيا تودّدًا للغرب، ولتقديم صورة تركيا العلمانية الجديدة إلى العالم الخارجي. يوضح مصطفى كمال أتاتورك، مؤسّس النظام الجديد، هذا الوضع على النحو الآتي: «إن آيا صوفيا جزء من تقاليدنا الإسلامية. فلو كان المسيحيون كتلة واحدةً، لكان هذا ممكنًا، لكن الكنيسة منقسمة جدًّا

لدرجة أنّه لم يعد ممكنًا. فمثل هذا الشيء يجعل الروس واليونانيين والإنكليكان يتقاتلون من أجل آيا صوفيا على أرضنا، وبعد كل شيء يمكن أن تتحول المبادرة التي تفكرون فيها من أجل السلام إلى عربدة وصراعات لا نهاية لها. سنحاول أن نفعل كل ما في وسعنا لتكريم المسيحية في نظر العالم. فإذا كان الاحتفاظ بآيا صوفيا جامعًا يضر حقًّا بالكنيسة الكاثوليكية، فيمكننا تحويله إلى متحف، أو إغلاقه إلى الأبد. ولا ينبغي لأحد أن يقول: إننا نؤذي العالم المسيحي عمدًا»[24].

يتضح مما سبق أن تحويل جامع آيا صوفيا الكبير إلى متحف آيا صوفيا هو نتاج جهود بذلتها تركيا الجديدة من أجل العلمانية رغبةً منها في الظهور أمام العالم الخارجي بأنها تريد التغريب[25]. ولا ننسى أنه قبل قرار تحويل آيا صوفيا إلى متحف، كان آيا صوفيا المكان الأول الذي ألقي فيه خطبة الجمعة باللغة التركية، بعد حذف عبارة «دين الدولة هو الإسلام» من دستور عام 1928. في هذا السياق، سعت الحكومة الجديدة إلى تجسيد أيديولوجيتها وهويتها في آيا صوفيا[26]. فكان تحويل جامع آيا صوفيا إلى متحف فني بيزنطي دلالة واضحة إلى العقلية (اللائكية) لدى رجالات الدولة التركية[27]، وانعكاس الهوية العلمانية للدولة الجديدة على الخارج من خلال آيا صوفيا[28].

بشكل عام، كان المجال الديني أكثر المجالات التي مورست عليها سياسة (اللائكية) القمعية التي ترنو إلى تغيير المجتمع باسم الحداثة. فتدخلت الدولة في الحياة الدينية، وتجاهلت حرية الدين والوجدان، وحبست الدين في الوجدان[29] إلى درجة عُدَّ الدين على أنه قيمة من «بقايا العصور المظلمة، وفضول لا حاجة إليه»[30]. وفي ظل هذا الفهم السياسي حُظِر رفع الأذان باللغة العربية، وخُتِمت أبواب الأضرحة والتكايا والمدارس الدينية، وأُغلِقت مدرسة هيبالي أضا للرهبان، وجرى الاستيلاء على ممتلكات الأقليات، ومُنِع ارتداء الحجاب في المدارس[31]. إذ أراد مؤسسو الجمهورية أن يكون النظام الجديد ذا طابع علماني. في هذا السياق، كان يُنظَر إلى الدين على أنه حجر عثرة أمام الانقلاب؛ لذا جرى حبسه في الوجدان، واستُبعِدت الرموز الدينية من الحياة العامة، وأُغلِقت بعض المساجد والأضرحة، وحُظِر الحجاب، وأُغلِقت المدارس الدينية، وحُظِرت الحروف العربية[32]. وقد بدأ العدول عن تصوّر الدولة المناهضة للدين بذاته في عهد الحزب الديمقراطي، والانتقال إلى الحياة السياسية متعددة الأحزاب، وأُنشِئَ مفهوم الدولة التي لا تناهض الدين، بل تناهض التعصب[33]، وأُعِيد تفسير (اللائكية) من منظور ليبرالي. فالحزب الديمقراطي الذي أُسِّس في 7 يناير 1946، وتمكن من إنهاء حكم الحزب الواحد؛ سرعان ما ألغى رفع الأذان باللغة التركية، وأعاد فتح الأضرحة والمدارس والدينية، ووسّع نطاق الحرية الدينية بشكل كبير.

بدأت عملية التحول الديمقراطي في تركيا في عهد الحزب الديمقراطي، واستمرّت في عهد تورغوت أوزال الذي أسّس حزب الوطن الأم، وشغل منصب رئيس الوزراء في الأعوام (1983–1989)، حيث أُلغِيت المواد المعادية للديمقراطية، مثل المواد 141 و142 و163، ووُسِّع مجال الحريات الفردية والدينية أكثر من ذي قبل بقليل[34].

ومع وصول حزب العدالة والتنمية إلى سدّة الحكم بقيادة رجب طيب أردوغان في انتخابات عام 2002، خضعت العلاقات بين الدين والدولة إلى عملية تصميم جديدة، وبدأ التخلي عن ممارسة سياسة الحظر والقمع في العلاقات بين الدين والدولة، واتُّخِذت خطوات مهمّة في مجال الحريات الدينية، ورُفِعَ الحظرُ على الحجاب في المؤسسات التعليمية والمؤسسات والهيئات العامة، ورُفِع حاجز المُعامِل الخاص بثانويات الأئمة والخطباء، وسُهِّل افتتاح معاهد تعليم القرآن الكريم، واعترفت الدولة بالهوية العلوية للمرة الأولى في عهد الجمهورية، وبدأت إعادة بعض العقارات إلى أصحابها من غير المسلمين، التي استولت عليها الدولة سابقًا. في هذه الفترة، استُبدِل بالفهم الرسمي الذي سيطر عليه نهج إقصاء الدين والملتزمين بالدين لسنوات عديدة– فهمٌ أكثر شمولًا للدين والعلمانية الذي يحثّ على العيش في سلمٍ مع المتدينين والأقليات والمذاهب[35].

لكن من المهمّ هنا تأكيد نقطة، هي أن حزب العدالة والتنمية وضع نصب عينيه التجربة الأليمة التي عاشتها تركيا في الماضي القريب، فتجنب المواجهة مع الشرائح ذات الحساسية العلمانية العالية. لهذا السبب، قضى حزب العدالة والتنمية ولايتين في تهيئة الأجواء السياسية والقانونية اللازمة لاتخاذ الخطوات المتوقّعة في مجال الحريات الدينية والتعليم الديني والخدمات الدينية. ولم يستطع إلغاء معظم المحظورات، مثل حظر الحجاب والعوائق أمام ثانويات الأئمة والخطباء إلا في ولايته الثالثة[36].

يرى حزب العدالة والتنمية أن (اللائكية) «أداة تضمن حرية الدين والوجدان»، وأن هذا المبدأ يقوم على «حرية أتباع الديانات والمعتقدات في ممارسة شعائرهم والتعبير عن معتقداتهم الدينية وأن يعيشوا في هذا المنحى بأريحية...». هذا الفهم لـ(اللائكية) يختلف عن ذاك الفهم الذي كان في عهد الحزب الواحد الذي حوّل العلمانية إلى «أيديولوجية احتكارية وإملائية» من خلال وضع الدين تحت سيطرة الدولة[37]. هذا الفهم العلماني الليبرالي لحزب العدالة والتنمية كان له تأثير في اتخاذ خطوات سياسية واجتماعية وثقافية، وبخاصة فيما يتعلق بالأقليات. وهناك تطورات إيجابية حصلت في السنوات الأولى من عهد حزب العدالة والتنمية، نذكر منها إعادة العقارات لأصحابها، واقتناء عقارات جديدة، واستصلاح وإعادة بناء بعض العقارات. وشهدت الساحة مستجدات لمصلحة الأقليات في عهد حزب العدالة والتنمية، مثل السماح للأقليات القيام بالنشر بلغتهم، واختيار المعلمين

الذين يريدونهم في مدارسهم، وافتتاح أقسام لتطوير لغاتهم في بعض الجامعات، والقضاء على التمييز في المؤسسات العامة، وتغطية الاحتياجات الأساسية لأماكن العبادة مجّانًا، وخطوات مماثلة أخرى.

بالإضافة إلى ذلك، هناك ما مجموعه 435 كنسية وكنيسًا في خدمة نحو 180 ألفًا و854 مسيحيًّا و20 ألف يهودي في تركيا. وفي أثناء لقائه مع قادة الرأي من غير المسلمين في فبراير 2015 في قصر أنقرة، سلّط حزب العدالة والتنمية الضوء على الخطوات التي اتخذها تجاه الجماعات الدينية المختلفة في هذه المأدبة، وقال في بيانه أن هناك 165 وقفًا طائفيًّا ظل يمارس نشاطاته وفعالياته حتى عام 2015؛ منها 76 وقفًا روميًّا، و53 أرمنيًّا، و19 يهوديًّا، و10 أوقاف سريانية، و3 كلدانية، ووقفان بلغاريان، ووقف جورجي، وآخر ماروني. وفي إطار حزمة التحوّل الديمقراطي التي أعلنها حزب العدالة والتنمية في 30 سبتمبر 2013، مُنِح 244 فدانًا من الأراضي التابعة لوقف مور غبريال للطائفة السريانية[38].

لم تقتصر المستجدات في إطار حرية العبادة على ما سبق، فقد جرى الإسراع في ترميم أماكن العبادة الخاصة بالجماعات الدينية المختلفة، وقد دُعِم هذا الفهم من خلال العقارات

التابعة للأديان المختلفة. وأعرض هنا بعض العقارات التي تنتمي إلى الجماعات الدينية المختلفة، التي جرى إصلاحها وترميمها في عهد حزب العدالة والتنمية: كنيسة ديار بكر سور الأرمنية الكاثوليكية، كنيسة ديار بكر سور الأرمنية البروتستانتية، كنيسة غازي عنتاب نيزيب فوقاني، كنيس غازي عنتاب شاهين بيك، كنيسة غوكجة أضا آيانيكولا، كنيسة غوكجة أضا آياماريا الرومية الأرثوذكسية، كنيسة هطاي إسكندرون السريانية الكاثوليكية، كنيسة قم كابي مريم أنا، كنيسة القديس كيراكوس، كنيسة فورفوكس فورودمان. باختصار، لم يؤدّ التبادل بين الدين والسياسة إلى تحسين أوضاع المحافظين فحسب، بل أدّى إلى تحسين وضمان حقوق الأقليات أيضًا[39].

لذلك قالت مراسلة البرلمان الأوربي لدى تركيا، ريا أومن رويجتن: إن حقوق المسيحيين والحريات الدينية في تركيا في تحسّن مستمرّ في عهد حزب العدالة والتنمية[40].

لذا كان وصول حزب العدالة والتنمية إلى سدة الحكم بمفرده عام 2002 نقطة انطلاق عهدٍ جديدٍ في سياق فهم العلمانية، والسياسات الدينية، وعلاقة النظام بالدين والملتزمين بالدين في تركيا. حيث تحقق كثير من مطالب المحافظين والمتدينين والعلويين والأقليات تدريجيًّا، واتّسع نطاق الحريات الفردية والدينية.

النقاشات الدائرة حول تحويل آيا صوفيا إلى جامع:

في الآونة الأخيرة، شهدت تركيا تطورًا مهمًّا في ظل حكومة حزب العدالة والتنمية، هو تحويل متحف آيا صوفيا من جديدٍ إلى جامع آيا صوفيا الكبير، وفتح أبوابه أمام المسلمين للصلاة فيه. إذ أعادت تركيا افتتاح آيا صوفيا جامعًا بوصفه يشكل جزءًا من سيادتها؛ لتبني من جديدٍ الأرضية الجيوسياسية الدينية، وإنتاج لغة سياسية أكثر احتوائية، بناءً على بروفيل سياسي قوي. والمدلول السياسي لهذا العمل؛ هو أنه إعلانٌ للعالم عن الانتماء المعنوي، والوحدة بين الماضي والحاضر، والهوية باعتبارها قيمةً محمولة من جيل إلى جيل، والسيادة باعتبارها شعورًا، والوحدة العاطفية في المجتمع[41]. والمطالبة بإعادة تحويل آيا صوفيا إلى جامع في الواقع ليست جديدة، فقد أخذت الكتابات في هذا الشأن تصدر في العديد من الصحف والمجلات منذ عام 1950.

فبعد زوال عهد حكم الحزب الواحد، وتحوّل حزب الشعب الجمهوري إلى الحزب الدائمي المعارض؛ بدأت تتعالى أصوات المواطنين، وتنادي بمطالبها المتعلقة بقضية آيا صوفيا، بعد الصمت المطبق الناتج عن القمع الذي يصفه المؤرخ إبراهيم حقي قونْيَلي بقوله: «لقد شعر الشعب بحزن كبير عندما أُغلِق الجامع، فرفع راية العصيان على هذا الوضع،

لكن المحاكم كانت قائمة، ولم يستطع أحد أن يرفع صوته، ولم يكن بمقدوره أن يفعل ذلك ...»[42].

وتكللت سياسة احترام الحزب الديمقراطي للقيم الدينية بالشروع في ظهور المطالب الدينية لدى الشعب. فكان من نتائج هذه السياسية إلغاء الحظر عن الأذان باللغة العربية في 16 يونيو 1953، فعمت مشاعر الرضا في جميع أنحاء البلاد، حتى إنه دفع أحد العمّال في محطة قطار قرطل يونس اسمه خالد دمير يومروك إلى كتابة رسالة إلى رئيس الوزراء عدنان مندريس بتاريخ 10/ 09/ 1950، يقول فيها: «اعتمادًا على الحساسية الإسلامية التي أبديتموها تجاه الأذان المحمدي، أتجرأ وأكتب لكم باسم إخوتي الأتراك المسلمين، وأرجو منكم أن تحسنوا إلينا وتقوموا بافتتاح آيا صوفيا جامعًا. ولكم مني فائق المحبة والتقدير»[43]. وقد تردّد هذا المطلب دائمًا من قبل الكتاب المشهورين آنذاك، من أمثال نجيب فاضل قيصه كورك، وبيامي صفا.

ومن بين كبار القادة السياسيين الذين أعادوا آيا صوفيا إلى جدول الأعمال نذكر نجم الدين أربكان أحد الفاعلين المهمّين في الحياة السياسية التركية، والمعروف بآرائه الإسلامية. فقد كانت خطابات أربكان السياسية تقوم على التشديد على إعادة فتح آيا صوفيا جامعًا، إضافة إلى محاربة الصهيونية، وتبنّي القضية الفلسطينية، والدعوة إلى الأخلاق والمعنويات. فقد أكّد أربكان في خطاباته التي ألقاها في المؤتمرات والقاعات ضرورة إعادة افتتاح آيا صوفيا للعبادة، وأكد كذلك الأهمية الرمزية لآيا صوفيا في مسيرات ومظاهرات الفتح التي كان ينظمها في ذكرى فتح القسطنطينية. ففي الخطاب الذي ألقاه أربكان بصفته رئيسًا لحزب النظام الوطني في سينما سيتا في مدينة قره بوك بتاريخ 31 مايو 1970، قال عبارته المشهورة: «أدعوكم للصلاة في مسجد آيا صوفيا عام 1973»، وكان ذلك سببًا من أسباب حلِّ حزب النظام الوطني[44]. مع ذلك، بدأت أصوات المطالبين بإعادة فتح آيا صوفيا للعبادة تزداد يومًا بعد يوم، حتى أصبح هذا الموضوع يشكّل القضية الرئيسة على أجندات المؤتمرات التي تنظّمها الجماعات الدينية القومية أو المحافظة.

مع إلغاء الدائرة العاشرة لمجلس الدولة قرار مجلس الوزراء المؤرخ 24 نوفمبر 1934 بشأن تحويل آيا صوفيا من جامع إلى متحف بتاريخ 10 يوليو 2020، اتُّخِذت الخطوة الأولى لفتح أبواب آيا صوفيا للعبادة. وقد ورد في موجب القرار الذي جاء فيه: إن آيا صوفيا كان مملوكًا لوقف السلطان محمد الفاتح، وأنه قُدِّم لخدمة المجتمع بوصفه جامعًا: «وقد خلصنا إلى أنه لا يجوز قانونًا استخدامه بصفةٍ أخرى غير صفة الجامع المذكورةِ في سند الوقف». وهذا القرار الذي أعاد صفة الجامع إلى آيا صوفيا، جلب معه النقاشات التي استغرقت وقتًا طويلًا.

فبعد قرار الدائرة العاشرة لمجلس الدولة هذا، قال أردوغان: «بعد مرور 86 سنة على إعلانه متحفًا، سيكون آيا صوفيا قادرًا على البدء بوظيفته بوصفه جامعًا، تمامًا كما هو وارد في وقفية السلطان محمد الفاتح»، مؤكّدًا أنّ القرار يتعلّق بالحقوق السيادية لتركيا. وأضاف قائلًا: «بالطبع، إننا نتفهّم كل الآراء على الساحة الدولية حول هذه القضية. لكن الموضوع الذي يتناول ماهية الأهداف التي سيجري استخدام آيا صوفيا من أجلها موضوعٌ يتعلق بالحقوق السيادية لتركيا. فافتتاح آيا صوفيا للعبادة من جديدٍ بناءً على ترتيبات قانونية جديدة هو نتاج استخدام بلدنا لحقه في السيادة. إن تحويل آيا صوفيا إلى جامع -الذي ينسجم بما ورد في وقفيته- بالنسبة للجمهورية التركية حقٌّ بمقدار ما هو حقٌّ علَمها وعاصمتها وأذانها ولغتها وحدودها وولاياتها البالغة إحدى وثمانين. وإننا نعدّ كل موقفٍ وبيانٍ [في هذا الأمر] يذهب أبعد من كونه تعبيرًا عن الرأي- انتهاكًا لاستقلالنا»[45].

وقد دعم رئيس حزب الحركة القومية (MHP) وشريك التحالف الجمهوري دولت بهجلي قرار آيا صوفيا قائلًا: «إن حزب الحركة القومية سعيد ومطمئن للغاية بقرار مجلس الدولة. وإن اليوم يوم تاريخيٌّ، حيث تحققت المطالب المشروعة للشعب التركي المسلم، وفتِحت أبواب آيا صوفيا على مصراعيها للجباه الطاهرة التي تريد السجود لله تعالى»[46].

وكذلك رحّب رئيس حزب السعادة، تَمَل قَرَه ملا أوغلو بقرار مجلس الدولة بشأن آيا صوفيا، وقال: «أقدّر قرار مجلس الدولة الذي يُعَدّ خطوة مهمّة نحو إعادة آيا صوفيا إلى هويته السابقة، بما يتماشى مع إرادة السلطان محمد الفاتح، وفتحه للعبادة بوصفه جامعًا. إنه قرار اتُّخِذ تحقيقًا لمطلب طالما نادى به شعبنا»[47].

مع افتتاح آيا صوفيا للعبادة، دعا رئيس الشؤون الدينية علي أرباش قادة الأحزاب السياسية إلى الافتتاح الذي سيبدأ بأداء صلاة الجمعة في 24 يوليو 2020. لكن صلاة الجمعة هذه أصبحت موضع جدلٍ، ولاسيما عند حزب المعارضة الأم، حزب الشعب الجمهوري. فقد قال نائب حزب الشعب الجمهوري محرم إنجه [في وقته]: «سأذهب إلى أول صلاة في آيا صوفيا إذا جاءتني الدعوة».

وقالت جانان قفطانجي أوغلو، رئيسة حزب الشعب الجمهوري في ولاية إسطنبول: «محرم إنجه يذهب نيابة عن الجميع»، مستهدفة بذلك آخر مرشّح رئاسي من حزبها، بينما رفض رئيس حزب الشعب الجمهوري، كمال قليجدار أوغلو، دعوة رئيس الشؤون الدينية أرباش، بحجة أنه لا يصوّب إطلاقًا إقامة الصلاة أمام الكاميرات[48].

في خطابه السابق، قال قليجدار أوغلو، إنه يجري تضخيم قضية آيا صوفيا، وإنّ جعل هذه القضية محط الأجندات التركية والعالمية غير منطقي على الإطلاق. فآيا صوفيا بحسب

قليجدار أوغلو: «هو أصلًا مكان للعبادة. أقصد القول: إنّ له إمامًا، وهو ليس مغلقًا على العبادة بالتمام. وهو بالتأكيد مدرج ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي. ويجب قبوله على هذا النحو، لكنه يجري استخدامه في السياسة الداخلية من حين لآخر، فيقولون "دعونا نحوله إلى جامع ونفتحه للعبادة". إننا لا نصوّب استخدام آيا صوفيا مادة للسياسة الداخلية. فإن كان الحزب الحاكم يقول "إني أفتتح آيا صوفيا للعبادة" ، فإن القرار بيده، يجلس أردوغان، ويصنع القرار، وينشره في الصحف الرسمية، فيجري افتتاحه للعبادة بعد أن كان متحفًا. الأمر بسيط لهذه الدرجة. ومن هنا، فإنّ تضخيم هذه المسألة وجعله محور الأجندات التركية والعالمية أمرٌ لا منطق له على الإطلاق»[49].

وعلّق رئيس حزب الديمقراطية والتقدم علي باباجان على الجدل الدائر حول إعادة افتتاح آيا صوفيا للعبادة بقوله: «كلما تعثرت خطوات الحزب الحاكم في السياسة الداخلية، جاءت آيا صوفيا في جدول أعماله؛ لأنه ليس بمقدوره أن يفعل شيئًا غير تغيير الأجندات وجداول الأعمال أمام هذا الكمّ الهائل من المشكلات المجتمعية. هذا ما يفعله الحزب الحاكم حتى يومنا هذا. هذه أجندات مصطنعة، والبلاد لديها مشكلات حقيقية»[50].

وجاءت إحدى التصريحات المغايرة لما سبق حول تحويل آيا صوفيا إلى جامع من حزب الشعوب الديمقراطي، حيث أعلنت نائبة رئيس الحزب هدى قايا، في تصريحاتها الكارثية: إنها لا تجد بقاء آيا صوفيا متحفًا كافيًا، وطالبت بتحويله إلى كنسية بدلًا من تحويله إلى جامع[51]. كما عدّ حزب الشعوب الديمقراطي، تحويل آيا صوفيا إلى جامع لعبة سياسية يلعبها الحزب الحاكم، وأن قرار آيا صوفيا: «لا يحمل معنى آخر غير أنه تعبير عن لعبة سياسية للحزب الحاكم، ومعالجته الفظة للتراث الثقافي»[52].

لم تقتصر جدلية تحويل آيا صوفيا إلى جامع على السياسة الداخلية فحسب، بل امتدت إلى السياسة الخارجية أيضًا. فقد أعرب العديد من الدول، بدءًا من الولايات المتحدة وصولًا إلى روسيا عن آرائها حول آيا صوفيا. فقد أعلنت الولايات المتحدة أنها «محبطة» لقرار تحويل متحف أيا صوفيا إلى جامع. وعبّر المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية مورغان أورتاغوس عن موقفه الرافض للتغيير، فقال: «شعرنا بخيبة أمل عندما قرّرت الحكومة التركية تغيير متحف آيا صوفيا إلى جامع. هذا الصرح جزء مهمّ من قائمة اليونسكو للتراث العالمي. إنّنا متلهّفون لأن نسمع الحكومة التركية تخبرنا عن خطتها لإبقاء آيا صوفيا مكانًا يمكن للجميع الوصول إليه»[53].

وقال ديمتري بيسكوف المتحدث باسم الكرملين: إنه شأن داخلي يخصّ تركيا. لكنّه أعرب عن أمله في أن تضع الحكومة التركية بالحسبان أن آيا صوفيا جزء من التراث العالمي. بالإضافة إلى ذلك، دعا كيريل بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أنقرةَ إلى الاحتفاظ بآيا صوفيا متحفًا، وقال: «لا يمكننا العودة إلى العصور الوسطى. إننا نعيش اليوم في عالم متعدّد الأقطاب والأديان، ويجب احترام مشاعر المؤمنين»[54].

وقال كيرياكوس ميكوتاكيس، رئيس وزراء اليونان المجاورة لتركيا: إن قرار تحويل آيا صوفيا إلى جامع «سيؤثر في علاقة تركيا مع الاتحاد الأوربي»، وربط تحويل آيا صوفيا إلى جامع بالاتحاد الأوربي قائلًا: «إنه خيار يزعج كل من يعرف آيا صوفيا بوصفه موقعًا للتراث العالمي. وبالطبع لا يؤثر في العلاقات بين تركيا واليونان فحسب، بل يؤثر كذلك في علاقات تركيا مع الاتحاد الأوربي»[55].

الخاتمة والتقييم:

بدأت عملية تحويل متحف آيا صوفيا إلى جامع للمرة الأولى عام 2005، حيث رفعت جمعية الخدمة الدائمة للأوساط والأعمال التاريخية الوقفية دعوى قضائية على مجلس الدولة، وطالبته بإلغاء قرار مجلس الوزراء المؤرخ 24 نوفمبر 1934 ووقف العمل به، وذلك بتاريخ 24 يونيو 2005. ورفضت الدائرة العاشرة لمجلس الدولة طلب الجمعية بإلغاء قرار مجلس

الوزراء. وفي عام 2008 أيضًا، رفضت الدائرة العاشرة لمجلس الدولة الدعوى، مشيرةً إلى أن استخدام جامع آيا صوفيا متحفًا أمرٌ لا يخالف القانون، وصادقت هيئة دائرة الدعاوى الإدارية في مجلس الدولة على هذا القرار الصادر عن الدائرة العاشرة لمجلس الدولة. ومع ذلك، عادت الجمعية ورفعت دعوى قضائية ضد مجلس الدولة في عام 2016.

وجرى البت في الطلب الفردي الذي تقدمت به الجمعية إلى المحكمة الدستورية في عام 2018. ورأت المحكمة العليا أن الطلب الذي تقدمت به الجمعية على خلفية مزاعم انتهاك حرية الدين والوجدان، بسبب رفض طلبها في فتح آيا صوفيا للعبادة؛ طلبٌ غير مقبول، استنادًا «لعدم الصلاحية الشخصية للنظر»[56].

وتابعت الجمعية القضية إلى أن أصدرت الدائرة العاشرة لمجلس الدولة قرارًا في 10 تموز 2020 يقضي بتحويل آيا صوفيا من جديدٍ إلى جامعٍ، وهكذا أخذ آيا صوفيا يرسم تاريخه من جديد. ألغى مجلس الدولة قرار مجلس الوزراء رقم 1589/ 5 المؤرخ في 24 نوفمبر 1934، وجُعِل آيا صوفيا تابعًا لرئاسة الشؤون الدينية من أجل افتتاحه جامعًا، بقرار رئيس الجمهورية. وهكذا تمهّد الطريق أمام تحويل آيا صوفيا إلى جامعٍ بعد بقائه متحفًا من عام 1934 إلى عام 2020، وافتُتِح جامع آيا صوفيا للعبادة في وقت قصير.

إن معبد آيا صوفيا واحد من أهم المعابد في تاريخ البشرية، وواحد من أهم المراكز المعنوية والثقافية الموجودة في إسطنبول، وصرحٌ يرمز إلى فتح إسطنبول من قبل الأتراك المسلمين. هذا الصرح الذي يُعَدّ أحد أكبر وأروع المباني في العالم في زمن بنائه، وهو أحد أكثر معالم إسطنبول جذبًا للانتباه، وقد جرى إدراجه في قائمة اليونسكو للتراث العالمي في عام 1985. بعد فتح القسطنطينية عام 1453م حُوِّل آيا صوفيا إلى جامعٍ على يد السلطان محمد الثاني الذي جعله وقفًا، وأوصى بالحفاظ عليه، واشترط بقاءه جامعًا إلى الأبد.

إن قرار تحويل متحف آيا صوفيا إلى جامعٍ يعني بالمقام الأول إعادة تأمين استمرارية الأواصر التاريخية التي انقطعت جزئيًّا بين الإمبراطورية العثمانية والجمهورية التركية. فبهذا القرار أُعِيد تأسيس الاستمرارية الثقافية والتاريخية بين الدولة العثمانية والجمهورية التركية.

ثم إن قرار افتتاح آيا صوفيا من جديدٍ للعبادة كان استجابةً للتوقعات الاجتماعية. فالمطالب التي نادت بافتتاح آيا صوفيا من جديدٍ للعبادة منذ الخمسينيات شغلت الأجندات السياسية والاجتماعية في تركيا بعد انتقالها إلى حياة التعددية الحزبية، وعبرت الشرائح المختلفة، وبخاصة القومية والمحافِظة والمتدينة، عن ضرورة إعادة افتتاحه للعبادة

عبر منصات مختلفة. فأتى هذا القرار عبر القانون، تلبيةً لمطالب القوميين والمحافظين الذين يشكّلون أغلبية المجتمع التركي.

والنتيجة الأخرى التي جاء بها هذا القرار التاريخي هي التحول الليبيرالي لمفهوم (اللائكية)، أو تطبيع العلاقة بين الدين والدولة من خلال تفسير (اللائكية) بمنظور يحمي الحقوق الدينية.

فافتتاح آيا صوفيا للعبادة في سياق الحقوق التاريخية لتركيا هو نتاج التطبيع الذي حصل في العلاقة بين الدولة والدين، إلى جانب كونه مسألة ذات علاقة بحق تركيا في السيادة. أُعِيد افتتاح آيا صوفيا للعبادة نتيجة إعادة تشكيل تصوّر (اللائكية)، والنظر إليها بوصفها مفهومًا يحمي الحريات والمطالب الدينية، بدلًا من تصور يجري فيه تهميش الدين والرموز الدينية. فهذا القرار، إلى جانب كونه مؤشّرًا على تجلي إرادة الشعب، يدلّ على ضمان الحقوق والحرّيات الدينية. وهذا القرار هو تعبير عن سياسة تستجيب لمطالب المتدينين، بدلًا من فهم للعلمانية يقصي الدّين ويتجاهل مطالب ورغبات الملتزمين بالدّين.

وفي هذا السياق، فإن افتتاح آيا صوفيا من جديد جامعًا كما كان عليه منذ 681 عامًا يُعدُّ مكسبًا كبيرًا من حيث الحريات الدينية.

ولا يسعنا في الختام إلا أن نقول: إن تركيا بهذا القرار عزّزت سيادتها مرة أخرى. فجامع آيا صوفيا مؤشّر مهمّ من المؤشّرات السيادية لتركيا، إلى جانب كونه رمزًا لفتح إسطنبول. والجدل الذي كان يدور حول آيا صوفيا في هذا السياق، داخل القطر وخارجه، شكّل الأرضية السيكولوجية للتطبيع الذي حدث في العلاقات بين الدين والدولة، وأصبح في ذات الوقت عاملًا يعزّز سيادة تركيا.

فالنقاشات التي حصلت داخل البلاد وخارجها، من قبيل «الرجوع عن العلمانية»، و«العثمانوَية الجديدة»، و«الإسلاموية»، و«الابتعاد عن القيم الغربية أو قيم الاتحاد الأوربي»، هي بمثابة نقاشات موجّهة لإضعاف هذا التعزيز. ولكن بهذا القرار، استطاعت تركيا أن تعزّز سيادتها ومواقفها السياسية.

الهوامش والمراجع:

1. فريدون أماجان، الفاتح والقيامة 1453، دار تيماش، إسطنبول، 2012، ص (20-50).
2. سماوي أيِجَه، آيا صوفيا، الموسوعة الإسلامية، ج 5، وقف الديانة التركي، إسطنبول، 1991، ص 206.
3. زينب آخونباي، «آيا صوفيا: ميراث عالمي يجب حمايته / Bir Dünya Mirasının Korunması: Ayasofya»، الندوة الدولية السادسة لحماية المباني التاريخية وتعزيزها، الفصول 2-3-4 لعام 2017، ص38.
4. سماوي أيِجَه، المرجع السابق، ص 207.
5. سماوي أيِجَه، آيا صوفيا، الموسوعة العثمانية، منشورات Ağaç، إسطنبول، 1993، ص 45.
6. ياسمين شاهين أوزدمير، نوران قره بيلافاريان، «تخريبات قسطنطينبولوس في العهد اللاتيني في أثناء الحملة الصليبية الرابعة / Dördüncü Haçlı Seferi Velatin Döneminde Konstantinopolis'in Tahribatı»، مجلة 3 ،Yakın Mimarlık/1، أكتوبر 2019، ص (80-86).
7. أندريه كلوت، السلطان محمد الفاتح، الترجمة إلى التركية: نجلاء إشق، منشورات ملّيّت، إسطنبول 1991، ص 87.
8. دوكاس، التاريخ البيزنطي، ترجمه إلى التركية: VL. Mirmiroğlu، منشورات جمعية فتح إسطنبول معهد إسطنبول، إسطنبول 1956، ص (158-179).
9. فريدون أماجان، «فتح إسطنبول»، الموسوعة الإسلامية 23، وقف الديانة التركي، إسطنبول، 2001، ص (212-220).
10. أماجان، المرجع السابق، ص 218.
11. خليل إينالجيك، «العصر التركي / Türk Devri»، الموسوعة الإسلامية 23، وقف الديانة التركي، إسطنبول، 2001، ص (220-221).
12. فريق أحمد مختار باشا، «فتح القسطنطينية الجليل / Feth-i Celil-i Kostantiniye»، منشورات بدر، إسطنبول 1994، ص (387-390).
13. أمينة جاي قره، قطب المؤرخين: «كتاب خليل إينالجيك / Tarihçilerin Kutbu: Halil İnalcık Kitabı»، منشورات بنك العمل التركي، إسطنبول، 2006.
14. أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك ويشار باش، «آيا صوفيا معبد في ثلاث عهود / Üç Devirde Bir Mabed Ayasofya»، وقف البحوث العثمانية، إسطنبول، ص (13-25).
15. أيوردي سهيل أونور، رسائل إسطنبول 2، منشورات بلدية مدينة إسطنبول الكبرى، إسطنبول 1995، ص (60-61).
16. حليم باقي كونتر، «مسألة آيا صوفيا»، صحيفة يني إسطنبول، (10-23)/1966/04، ص 6.
17. آردم يوجل، «بعض الحقائق المتعلقة بتأسيس متحف آيا صوفيا في ضوء الوثائق / Belgelerin Işığı Altında Ayasofya›nın Müze Oluşu ile İlgili Bazı Gerçekler»، بحوث العالم التركي 78 / 1992، Türk Dünyası Araştırmaları، ص 186.
18. فولكان أرتيت، «العلمانية واللائكية: مفهومان مختلفان يُستخدَم أحدهما مكان الآخر / Birbirinin Yerine Kullanılan İki Farklı Kavram: Sekülerleşme ve Laiklik»، مجلة الدراسات الأكاديمية 1/9، 2014، ص 109.

19. نوراي مَرْت، «نظرة مفاهيمية في جدل اللائكية / Laiklik Tartışmasına Kavramsal Bir Bakış»، منشورات Bağlam، إسطنبول 1994، 57. أندرو دافيسون، «العلمانية والحداثة في تركيا / Türkiye'de Sekülarizm ve Modernlik»، منشورات İletişim، إسطنبول 2002، ص (214-215).
20. Gotthard Jäschke، «الإسلاموية الجديدة في تركيا / Yeni Türkiye›de İslamlık»، مكتبة Bilgi، أنقرة 1972، ص (19-33).
21. شريف ماردين، «الدين والسياسة في تركيا / Türkiye'de Din ve Siyaset»، مقالات 3، منشورات İletişim، إسطنبول 2011، ص (74-76).
22. إيبك آق بينار، «إنشاء إسطنبول من جديد: خطة هنري بوست 1937 / İstanbul'u (Yeniden) İnşa Etmek: 1937 Henri Prost Planı»، الأماكن والأزمنة والناس في الجمهورية / Cumhuriyet›in Mekânları, Zamanları İnsanları، إعداد: ألوان ألطان أرغوت وبيلكه إمام أوغلو، منشورات Dipnot، أنقرة 2010، ص 119.
23. يحيى سزائي تَزَل، «الإمبراطورية بعد التنظيمات وإشكالية المحافظين في الجمهورية التركية: الثوابت والتغيرات والانكسارات / Tanzimat Sonrası İmparatorluk ve Cumhuriyet Türkiye'sinde ‹Muhafazakârlık› Sorunsalı: Devamlılıklar, Değişmeler ve Kırılmalar»، المحافظون والفكر السياسي في تركيا الحديثة / Modern Türkiye'de Siyasi Düşünce, Muhafazakârlık، إعداد: أحمد جيدام، منشورات İletişim، إسطنبول 2009، ص 36.
24. مراد بردقجي، «أتاتورك قرّر إغلاق آيا صوفيا أمام العبادة وتحويله إلى متحف منذ عام 1923 / Atatürk, Ayasofya'yı ibadete kapatıp müzeye çevirmeye tâââ 1923'te karar vermişti!»، Habertürk، (تاريخ الزيارة: 2020/06/14):
https://www.haberturk.com/yazarlar/murat-bardakci/2712163-ataturk-ayasofyayi-ibadete-kapatip-muzeye-cevirmeye-t-1923te-karar-vermisti
25. إيبك آق بينار، «إنشاء إسطنبول من جديد: خطة هنري بوست 1937 / İstanbul'u (Yeniden) İnşa Etmek: 1937 Henri Prost Planı»، الأماكن والأزمنة والناس في الجمهورية / Cumhuriyet›in Mekânları, Zamanları İnsanları، إعداد: ألوان ألطان أرغوت وبيلكه إمام أوغلو، منشورات Dipnot، أنقرة 2010، ص (116-117).
26. أردل شاهين، انعكاس أيديولوجية الحكم في تركيا على المكان: آيا صوفيا نموذجًا / Türkiye'de İktidar İdeolojisinin Mekâna Yansıması: Ayasofya Örneği، (أطروحة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية/ فرع الإدارة العامة والعلوم السياسية، إسطنبول 2014)، ص106.
27. شاهين، المرجع السابق، ص 107.
28. محمد إنانج أوز أكمكجي، «صورة آيا صوفيا لدى اليمين التركي / Türk Sağında Ayasofya İmgesi»، في كتاب «رموز اليمين التركي والإدراج في اللوائح الأمنية والعدو / Türk Sağı-Mitler, Fetişler, Düşman İmgeleri»، إعداد: إنجي أوزكان كَرَسْتجي أوغلو، غُوَن غوركان أوزتان، منشورات İletişim، إسطنبول 2012، ص 287.
29. إريك جان زورشر، «تاريخ تركيا على طريق التحول الحداثي / Modernleşen Türkiye'nin Tarihi»، منشورات İletişim، إسطنبول 1998، ص (340-345).
30. شريف ماردين، «العلاقة بين المركز والمحيط باعتبارها مفتاحًا للسياسة التركية / Türk Siyasasını Açıklayabilecek Bir Anahtar Merkez-Çevre İlişkileri»، الحداثة والتغير السياسي في تركيا / Türkiye'de Politik Değişim ve Modernleşm، تحرير: أرسين قلايجي أوغلو، وعلي يشار صاري باي، وألفا أكتَوَل، إسطنبول 2007، ص 118.

31. بلال صمبور، «حرية الدين واللائكية والأيديولوجية الرسمية في تركيا / Türkiye'de Din Özgürlüğü, Laisizm ve Resmî İdeoloji»، الفكر الليبرالي 14/55، صيف 2009، ص 43.
32. برنارد لويس، ولادة تركيا الحديثة / Modern Türkiye'nin Doğuşu، مؤسسة التاريخ التركي، أنقرة 1993، ص (283-285).
33. بنيامين بَزجي، «آيا صوفيا: قضيتنا السياسية الأيديولوجية بين سيادة الدين وسيادة الدولة»، Kriter، عام 5، العدد 48، يوليو-أغسطس 2020، ص 85.
34. رمضان أق كير، المحافظة في تركيا / Türkiye'de Muhafazakarlık، منشورات Kutup Yıldızı، إسطنبول 2015، ص (147-160).
35. إسماعيل أق يوز، «تجربة تصنيفية من أجل السياسات الدينية المطبقة في تركيا / Türkiye'de Uygulanan Din Politikaları İçin Bir Tipoloji Denemesi»، مجلة الدراسات السياسية والاقتصادية والإدارية 5 ،1/PESA، 2007، ص (159-161).
36. إسماعيل أق يوز، «الديناميكيات الأساسية المؤثّرة في السياسات الدينية لدى حزب العدالة والتنمية / Adalet ve Kalkınma Partisi'nin Din Politikalarında Etkili Olan Temel Dinamikler»، مجلة الدراسات السياسية الدولية 2/3، 2016، ص 41.
37. محمد علي بويوك قره، «معنى وحدود اللائكية في تركيا اليوم على أرضية الجدل الدائر حول الإسلام المعتدل / Ilımlı İslam Tartışmaları Zemininde Günümüz Türkiyesi'nde Laikliğin Anlam ve Sınırları»، مجلة الأصول للبحوث الإسلامية 9/9، 2008، ص 192.
38. نجاتي سومر، «حقوق الأقليات في ظل حكومات حزب العدالة والتنمية / AK Parti Hükümetleri Döneminde Azınlık Hakları»، من كتاب حزب العدالة والتنمية وتركيا الصاعدة، (تحرير: رمضان آق كِر، يوسف أوزكِر، علي يشيل دال، جغطاي أوزدمير)، منشورات Kadim، أنقرة 2019، ص (289-290).
39. «تمت إعادة 1014 عقار تابع لغير المسلمين / Gayrimüslimlerin 1014 arazisi iade edildi»، emlaktasondakika.com، (تاريخ الزيارة: 10 / 08 / 2020):
https://www.emlaktasondakika.com/haber/genel/gayrimuslimlerin-1014-arazisi-iade-edildi/100133
40. «تحسن حرية الدين في عهد حزب العدالة والتنمية / AK Parti iktidarında din özgürlüğü arttı»، يني شفق، (تاريخ الزيارة: 10/ 2020/08):
https://www.yenisafak.com/gundem/ak-parti-iktidarinda-din-ozgurlugu-artti-435274
41. أوزجان غونغور، «جامع آيا صوفيا من الزاوية الجيوسياسية الدينية / Dini jeopolitik açıdan Ayasofya Camii»، يني شفق، 15 يوليو 2020:
https://www.yenisafak.com/hayat/dini-jeopolitik-acidan-ayasofya-camii-3549267
42. موسوعة التاريخ الحديث، منشورات Yeni Nesil، إسطنبول 1989، ج 7، ص 36.
43. عبد الله إكينجي، آيا صوفيا من العهد العثماني إلى العهد الجمهوري / Osmanlı'dan Cumhuriyet'e Ayasofya، (أطروحة ماجستير، معهد تاريخ الانقلاب ومبادئ أتاتورك، جامعة أتاتورك 2014)، ص 146.
44. قرارات المحكمة الدستورية، صحيفة رسمية، العدد 14072، 14 يناير 1972، ص 2.

45. «خبر عاجل: تصريحات مهمّة من رئيس الجمهورية أردوغان في خطابه للشعب / Cumhurbaşkanı Erdoğan›dan Millete Sesleniş konuşmasında önemli açıklamalar»، حرِّيَّت، (تاريخ الزيارة: 2020/08/10):
https://www.hurriyet.com.tr/gundem/son-dakika-haberi-cumhurbaskani-erdogan-millete-seslenis-konusmasi-yapiyor-41562108

46. «رئيس حزب الحركة القومية بهجلي يقدم بيانًا بشأن آيا صوفيا / MHP lideri Bahçeli'den Sözcü، (10 2020/08/Ayasofya açıklaması)»، (2020/08/10):
https://www.sozcu.com.tr/2020/gundem/mhp-lideri-bahceliden-ayasofya-aciklamasi-5924040/

47. «قره ملا أوغلو يقدّم تصريحًا بشأن آيا صوفيا: أقدّر قرار مجلس الدولة / Karamollaoğlu›ndan Ayasofya açıklaması! Danıştay kararını takdirle karşılıyorum»، ملِّيَّتْ، (2020/08/10):
https://www.milliyet.com.tr/siyaset/karamollaoglundan-ayasofya-aciklamasi-danistay-kararini-takdirle-karsiliyorum-6256496

48. عبد القادر سلوي، «قليجدار أوغلو لا يلبي دعوة آيا صوفيا / Kılıçdaroğlu Ayasofya Davetini Geri Çevirdi»، حرِّيَّتْ، (تاريخ الزيارة: 2020/08/20):
https://www.hurriyet.com.tr/yazarlar/abdulkadir-selvi/kilicdaroglu-ayasofya-davetini-geri-cevirdi-41568885

49. «قليجدار أوغلو يدلي بتصريح غريب حول آيا صوفيا / Kılıçdaroğlu›ndan Flaş Ayasofya Açıklaması»، Yeniçağ، (تاريخ الزيارة: 2020/07/08):
https://www.yenicaggazetesi.com.tr/kilicdaroglundan-flas-kurultay-aciklamasi-287538h.htm

50. «تصريح من علي باباجان بشأن آيا صوفيا: كلما تعثرت خطوات الحزب الحاكم، جاءت آيا صوفيا في جدول أعماله / Ali Babacan›dan Ayasofya çıkışı: İktidar ne zaman sıkışsa Ayasofya gündeme gelir»، بيرغون، (تاريخ الزيارة: 2020/07/09):
https://www.birgun.net/haber/ali-babacan-dan-ayasofya-cikisi-iktidar-ne-zaman-sikissa-ayasofya-gundeme-gelir-303880

51. «هدى قايا من حزب الشعوب الديموقراطي تقدّم تصريحات كارثية حول آيا صوفيا / HDP›li Hüda Kaya›dan skandal Ayasofya sözleri»، صباح، (تاريخ الزيارة: 2020/08/08):
https://www.sabah.com.tr/gundem/2020/07/08/hdpli-huda-kayadan-skandal-ayasofya-sozleri

52. «آيا صوفيا قضية تاريخية ولا يمكن استعمالها لعبة سياسية / HDP: Ayasofya tarihe aittir, politik oyun alanı olarak kullanılamaz»، Diken، (تاريخ الزيارة: 11/ 08/ 2020):
http://www.diken.com.tr/hdp-ayasofya-tarihe-aittir-politik-oyun-alani-olarak-kullanilamaz/

53. «الولايات المتحدة: أُصِبنا بالإحباط بقرار آيا صوفيا / ABD: Ayasofya kararı hayal kırıklığına uğrattı»، ديكان، (تاريخ الزيارة: 2020/08/11):
http://www.diken.com.tr/abd-ayasofyanin-camiye-donusturulmesi-karari-bizi-hayal-kirikligina-ugratti/

54. «رأي الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بشأن آيا صوفيا: لا يمكننا العودة إلى العصور الوسطى / Rus Ortodoks Kilisesi›nden Ayasofya yorumu: "Ortaçağ'a dönemeyiz»، Ermeni Haber Ajansı، (تاريخ الزيارة: 2020/08/11):
Rus-Ortodoks-Kilisesi-/06/07/https://www.ermenihaber.am/tr/news/2020
Ayasofya-T%C3%BCrkiye/187249

55. رئيس وزراء اليونان كيرياكوس ميكوتاكيس يقدم بيانًا يتجاوز الحد: القرار التركي بشأن آيا صوفيا سيوثّر في علاقتها بالاتحاد الأوربي / Yunan Başbakan Miçotakis›ten hadsiz «sözler: Türkiye›nin Ayasofya kararı AB›yle ilişkilerini de etkileyecek»، يني شفق، (تاريخ الزيارة: 2020/08/30):
https://www.yenisafak.com/gundem/yunan-basbakan-micotakisten-hadsiz-sozler-turkiyenin-ayasofya-karari-abyle-iliskilerini-de-etkileyecek-3548839

56. «إلغاء قرار مجلس الوزراء بتحويل آيا صوفيا من جامع إلى متحف / Ayasofya›yı camiden müzeye dönüştüren Bakanlar Kurulu kararına iptal»، Anadolu Ajansı، (تاريخ الزيارة: 2020/07/10):
https://www.aa.com.tr/tr/ayasofya-camii/ayasofyayi-camiden-muzeye-donusturen-bakanlar-kurulu-kararina-iptal-/1906077

Published by **SETA Foundation**

Edited by **Muhittin Ataman**

INSIGHT

TURKEY

Challenging ideas

on Turkish politics and international affairs

An insightful reference for 21 years

insightturkey.com

For subscription and editorial inquiries **contact us**
editor@insightturkey.com